# أحاديث إصلاح القلوب

## (٢٦)

### عمارة القلب بالإيمان

عَنْ أَبِي بَرْزَةَ الْأَسْلَمِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**يَا مَعْشَرَ مَنْ آمَنَ بِلِسَانِهِ وَلَمْ يَدْخُلِ الْإِيمَانُ قَلْبَهُ؛ لَا تَغْتَابُوا الْمُسْلِمِينَ وَلَا تَتَّبِعُوا عَوْرَاتِهِمْ، فَإِنَّهُ مَنِ اتَّبَعَ عَوْرَاتِهِمْ يَتَّبِعِ اللهُ عَوْرَتَهُ، وَمَنْ يَتَّبِعِ اللهُ عَوْرَتَهُ يَفْضَحْهُ فِي بَيْتِهِ**».

رواه أحمد وأبو داود[(١)].

قوله ﷺ: «**وَلَمْ يَدْخُلِ الإِيمَانُ قَلْبَهُ**» هذا نظير قول الله تعالى: ﴿قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا ۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ ۖ وَإِن تُطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَٰلِكُمْ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤﴾ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ﴾ [الحجرات:١٤] وقد نزلت في جماعة من الأعراب ادَّعوا لأنفسهم مقام الإيمان، ولم يحصل لهم بعد، فأُدِّبُوا وأُعْلِمُوا أنَّ ذلك لم يصلوا إليه بعد، فقيل لهم على وجه التَّأديب: ﴿قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ﴾ أي: لم تصلوا إلى حقيقة الإيمان بعد، ولم يتمكَّن الإيمان في قلوبكم، ولفظ «لمَّا» يُنفى به ما يقرب حصوله ويحصل

---

(١) رواه أحمد (١٩٧٧٦)، وأبو داود (٤٨٨٠)، وقال الألبانيُّ: «حسن صحيح».

غالبًا. فهو يدلُّ على أنَّ دخول الإيمان في قلوبهم منتظر منهم؛ فإنَّ الَّذِي يدخل في الإسلام ابتداء لا يكون قد حصل في قلبه الإيمان لكنَّه يحصل فيما بعد، وكان كمَن أسلم رغبة في الدُّنيا فلم يمض وقتٌ إلَّا والإسلام أحبُّ إليه ممَّا طلعت عليه الشَّمس، وكمَن دخل في العلم والدِّين لرغبة في مال أو جاه فلمَّا ذاق حلاوة العلم والإيمان كان ذلك أحبَّ إليه ممَّا طلعت عليه الشَّمس، ولهذا كان عامَّة الَّذِين أسلموا رغبة ورهبة دخل الإيمان في قلوبهم بعد ذلك.

وكثير من المسلمين ينشأ على القيام بأعمال الإسلام الظَّاهرة فيصلِّي ويصوم ويحجُّ ويتصدَّق، ولكنَّ حقائق الإيمان الباطنة لا تكون متمكِّنة وراسخة في قلبه، فهذا مسلم ولكنَّه لم يصل إلى درجة الإيمان، فالإيمان درجة عالية ومرتبة رفيعة لا يصل إليها إلَّا مَن دخل الإيمان في قلبه ورسخ، فعن سَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَّاصٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: أَعْطَى رَسُولُ اللهِ ﷺ رَهْطًا وَأَنَا جَالِسٌ فِيهِمْ، قَالَ: فَتَرَكَ رَسُولُ اللهِ ﷺ مِنْهُمْ رَجُلًا لَمْ يُعْطِهِ وَهُوَ أَعْجَبُهُمْ إِلَيَّ، فَقُمْتُ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ فَسَارَرْتُهُ، فَقُلْتُ: مَا لَكَ عَنْ فُلَانٍ وَاللهِ إِنِّي لَأُرَاهُ مُؤْمِنًا، قَالَ: «**أَوْ مُسْلِمًا**»، قَالَ: فَسَكَتُّ قَلِيلًا، ثُمَّ غَلَبَنِي مَا أَعْلَمُ فِيهِ، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، مَا لَكَ عَنْ فُلَانٍ وَاللهِ، إِنِّي لَأُرَاهُ مُؤْمِنًا، قَالَ: «**أَوْ مُسْلِمًا**»، قَالَ: فَسَكَتُّ قَلِيلًا، ثُمَّ غَلَبَنِي مَا أَعْلَمُ فِيهِ، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، مَا لَكَ عَنْ فُلَانٍ

وَاللهِ، إِنِّي لَأُرَاهُ مُؤْمِنًا، قَالَ: «**أَوْ مُسْلِمًا**»، فَقَالَ: «**إِنِّي لَأُعْطِي الرَّجُلَ وَغَيْرُهُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْهُ خَشْيَةَ أَنْ يُكَبَّ فِي النَّارِ عَلَى وَجْهِهِ**». متَّفق عليه(١).

فنبَّهه النَّبِيُّ ﷺ بقوله: «**أَوْ مُسْلِمًا**» إلى الحكم له برتبة الإسلام الَّتِي يحكم بها لكُلِّ مَن صَلَح ظاهره، ولا يحكم له بالإيمان لأنَّه مبنيٌّ على معرفة ما في باطن العبد؛ إذ هو راجع إلى صلاح الباطن الَّذِي به كمال صلاح الظَّاهر، وهذا شيء لا يطَّلع عليه النَّاس، والله تعالى يقول: ﴿فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمۡۖ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ﴾ [النَّجم:٣٢]. والتَّزكية من العباد لأنفسهم المنهيُّ عنها في الآية هي إخبارهم عن أنفسهم بكونها زاكية واعتقاد ذلك، بل المرجع في ذلك إلى الله عَزَّوَجَلَّ العالِم بحقائق الأمور وخفايا الصُّدور، ولهذا قال سبحانه: ﴿هُوَ أَعۡلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ﴾، كما قال: ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُمۚ بَلِ ٱللَّهُ يُزَكِّي مَن يَشَآءُ وَلَا يُظۡلَمُونَ فَتِيلًا﴾ [النِّساء:٤٩].

ثمَّ إنَّ الإيمان إذا دخل في القلب وتمكَّن فيه حجز صاحبه عن المعاصي ومنعه من الذُّنوب، ولهذا قال النَّبِيُّ ﷺ في الحديث المُتَقَدِّم: «**يَا مَعْشَرَ مَنْ آمَنَ بِلِسَانِهِ وَلَمْ يَدْخُلِ الْإِيمَانُ قَلْبَهُ؛ لَا تَغْتَابُوا الْمُسْلِمِينَ وَلَا تَتَّبِعُوا عَوْرَاتِهِمْ**»(٢). ففيه تنبيه على أنَّ غيبة المسلمين والتَّجسُّس عليهم وتتبُّع

---

(١) رواه البخاريُّ (٢٧)، ومسلم (١٥٠).

(٢) رواه أحمد (١٩٧٧٦)، وأبو داود (٤٨٨٠)، وقال الألبانِيُّ: «حسن صحيح».

عوراتهم ومساويهم أمارةٌ على نقص الإيمان القلبيِّ وضعفه؛ لأنَّه لو كان القلب قويًّا بالإيمان معمورا بالخير والإحسان لحجزه عن هذه الفعال.

وهذا من عواقب الذنوب وعقوباتها : "أنها تخرج العبد من دائرة الإحسان وتمنعه من ثواب المحسنين ، فإن الإحسان إذا باشر القلب منعه عن المعاصي ، فإن من عبد الله كأنه يراه، لم يكن كذلك إلا لاستيلاء ذكره ومحبته وخوفه ورجائه على قلبه ، بحيث يصير كأنه يشاهده ، وذلك سيحول بينه وبين إرادة المعصية ، فضلا عن مواقعتها ، فإذا خرج من دائرة الإحسان ، فاته صحبة رفقته الخاصة ، وعيشهم الهنيء ، ونعيمهم التام ، فإن أراد الله به خيرا أقره في دائرة عموم المؤمنين ، فإن عصاه بالمعاصي التي تخرجه من دائرة الإيمان كما قال النبي - صلى الله عليه وسلم : لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن ، ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن ، ولا يسرق السارق حين يسرق وهومؤمن ، ولا ينتهب نهبة ذات شرف يرفع إليه فيها الناس أبصارهم حين ينتهبها وهو مؤمن فإياكم إياكم ، والتوبة معروضة بعد ".

«عن أبي جعفر محمَّد بن عليٍّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنَّه سُئِل عن قول النَّبِيِّ ﷺ: «**لَا يَزْنِي الزَّانِي حِينَ يَزْنِي وَهُوَ مُؤْمِنٌ**»[(١)]، فقال أبو جعفر: هذا الإسلام ودَوَّر

(١) رواه البخاريُّ (٢٤٧٥)، ومسلم (٥٧).

دارةً واسعةً، وهذا الإيمان ودَوَّر دارةً صغيرةً في وسط الكبيرة؛ فإذا زنى أو سرق خرج من الإيمان إلى الإسلام، ولا يخرجه من الإسلام إلَّا الكفر بالله»[(١)].

فالإيمان القلبيُّ الصَّادق أعظم حاجز للعبد وأقوى رادع له يكفُّه عن الذُّنوب ويحجزه عن الوقوع في المعاصي؛ ولهذا فحاجة العبد ماسَّة وضرورته مُلِحَّة إلى تعلُّم أصول الإيمان والعناية بها واتِّخاذ الأسباب المُيَسِّرة لوصولها إلى قلبه، وأن يجاهد نفسه في تعلُّم حقائق الإيمان الباطنة ممَّا يتعلَّق بأسماء الله وصفاته وما يتعلَّق بملائكته وأنبيائه ورسله وقدَره وغير ذلك من أصول الإيمان، وبذلِ الجهد في اتِّخاذ الأسباب الجالبة لذلك.

قال الشَّيخ عبد الرَّحمن السِّعديُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «والله تعالى قد جعل لكُلِّ مطلوب سببًا وطريقًا يوصل إليه، والإيمان أعظم المطالب وأهمُّها وأعمُّها، وقد جعل الله له موادَّ كبيرة تجلبه وتُقَوِّيه، كما كان له أسباب تضعفه وتوهيه.

وموادُّه الَّتِي تجلبه وتُقَوِّيه أمران: مُجْمَل ومُفَصَّل.

أمَّا المُجْمَل فهو التَّدبُّر لآيات الله المتلُوَّة من الكتاب والسُّنَّة، والتَّأمُّل لآياته الكونيَّة على اختلاف أنواعها، والحرص على معرفة الحقِّ الَّذِي خُلِق

---

(١) رواه محمَّد بن نصر المروزيُّ في تعظيم قدر الصَّلاة (٥٦٣).

له العبد، والعمل بالحقِّ، فجميع الأسباب مرجعها إلى هذا الأصل العظيم.

وأمَّا التَّفصيل، فالإيمان يحصل ويقوى بأمور كثيرة.

منها -بل أعظمها-: معرفة أسماء الله الحسنى الواردة في الكتاب والسُّنَّة، والحرص على فهم معانيها، والتَّعبُّد لله فيها. فقد ثبت في الصَّحيحين عنه ﷺ، أنَّه قال: «**إِنَّ للهِ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ اسْمًا -مِائَةً إِلَّا وَاحِدًا- مَنْ أَحْصَاهَا دَخَلَ الجَنَّةَ**»(١)، أي: مَن حفظها وفهم معانيها، واعتقدها، وتعبَّد لله بها؛ دخل الجنَّة، والجنَّة لا يدخلها إلَّا المؤمنون، فعُلِم أنَّ ذلك أعظم ينبوع ومادَّة لحصول الإيمان وقُوَّته وثباته، ومعرفة الأسماء الحسنى هي أصل الإيمان، والإيمان يرجع إليها.

**ومنها**: تدبُّر القرآن على وجه العموم؛ فإنَّ المُتَدَبِّر لا يزال يستفيد من علوم القرآن ومعارفه، ما يزداد به إيمانًا، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [الأنفال:٢]. وكذلك إذا نظر إلى انتظامه وإحكامه، وأنَّه يُصَدِّق بعضه بعضًا، ويوافق بعضه بعضًا، ليس فيه تناقض ولا اختلاف؛ تيقَّن أنَّه: ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فُصِّلت:٤٢]. وأنَّه لو كان من عند غير الله، لوجد فيه من التَّناقض والاختلاف أمور كبيرة، قال تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ

(١) رواه البخاريُّ (٢٧٣٦)، ومسلم (٢٦٧٧).

لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخۡتِلَٰفٗا كَثِيرٗا ﴾ [النِّساء:٨٢]. وهذا من أعظم مُقَوِّيات الإيمان.

فالتَّدبُّر للقرآن من أعظم الطُّرُق والوسائل الجالبة للإيمان، والمُقَوِّية له، قال تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ مُبَٰرَكٞ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴾ [ص: ٢٩].

فاستخراج بركة القرآن -الَّتِي من أهمِّها حصول الإيمان- سبيله وطريقه تدبُّر آياته وتأمُّلها.

وكذلك معرفة أحاديث النَّبِيِّ ﷺ، وما تدعو إليه من علوم الإيمان وأعماله، كلُّها من مُحَصِّلات الإيمان ومُقَوِّياته. فكُلَّما ازداد العبد معرفة بكتاب الله وسُنَّة رسوله، ازداد إيمانه ويقينه.

**ومن طرق موجبات الإيمان وأسبابه:**

معرفة النَّبِيِّ ﷺ، ومعرفة ما هو عليه من الأخلاق العالية، والأوصاف الكاملة؛ فإنَّ مَن عرفه حقَّ المعرفة لم يَرْتَبْ في صدقه، وصدق ما جاء به من الكتاب والسُّنَّة، والدِّين الحقِّ، كما قال تعالى: ﴿أَمۡ لَمۡ يَعۡرِفُواْ رَسُولَهُمۡ فَهُمۡ لَهُۥ مُنكِرُونَ﴾ [المؤمنون:٦٩] أي: فمعرفته ﷺ توجب للعبد المبادرة إلى الإيمان ممَّن لم يؤمن، وزيادة الإيمان ممَّن آمن به.

فهو ﷺ أكبر داع للإيمان في أوصافه الحميدة، وشمائله الجميلة، وأقواله الصَّادقة النَّافعة، وأفعاله الرَّشيدة. فهو الإمام الأعظم، والقدوة

الأكمل، ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ [الأحزاب:٢١]، ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾ [الحشر:٧].

**ومن أسباب الإيمان ودواعيه:**

التَّفكُّر في الكون، في خلق السَّماوات والأرض وما فيهنَّ من المخلوقات المُتَنَوِّعة، والنَّظر في نفس الإنسان، وما هو عليه من الصِّفات. فإنَّ ذلك داع قويٌّ للإيمان، لما في هذه الموجودات من عظمة الخلق الدَّالِّ على قدرة خالقها وعظمته، وما فيها من الحسن والانتظام، والإحكام الَّذِي يُحَيِّر الألباب، الدَّالِّ على سعة علم الله، وشمول حكمته وما فيها من أصناف المنافع والنِّعم الكثيرة الَّتِي لا تعدُّ ولا تحصى، الدَّالَّة على سعة رحمة الله، وجوده وبِرِّه. وذلك كلُّه يدعو إلى تعظيم مبدعها وبارئها وشكره، واللَّهَج بذكره، وإخلاص الدِّين له. وهذا هو روح الإيمان وسِرُّه.

وكذلك النَّظر إلى فقر المخلوقات كلِّها، واضطرارها إلى ربِّها من كُلِّ الوجوه، وأنَّها لا تستغني عنه طرفة عين خصوصًا ما تشاهده في نفسك، من أدلَّة الافتقار، وقوَّة الاضطرار؛ وذلك يوجب للعبد كمال الخضوع، وكثرة الدُّعاء والتَّضرُّع إلى الله في جلب ما يحتاجه من منافع دينه ودنياه، ودفع ما يضرُّه في دينه ودنياه، ويوجب له قوَّة التَّوكُّل على ربِّه، وكمال الثِّقة بوعده، وشدَّة الطَّمع في برِّه وإحسانه، وبهذا يتحقَّق الإيمان، ويقوى التَّعبُّد؛ فإنَّ

الدُّعاء مخُّ العبادة وخالصها.

وكذلك التَّفكُّر في كثرة نعم الله وآلائه العامَّة والخاصَّة، الَّتِي لا يخلو منها مخلوق طرفة عين، فإنَّ هذا يدعو إلى الإيمان.

**ومن أسباب دواعي الإيمان:**

الإكثار من ذكر الله كُلَّ وقت، ومن الدُّعاء الَّذِي هو مخُّ العبادة؛ فإنَّ الذِّكر لله يغرس شجرة الإيمان في القلب، ويُغَذِّيها وينميها. وكُلَّما ازداد العبد ذكرًا لله قوي إيمانه، كما أنَّ الإيمان يدعو إلى كثرة الذِّكر؛ فمَن أحبَّ الله أكثر من ذكره، ومحبَّة الله هي الإيمان، بل هي روحه.

**ومن الأسباب الجالبة للإيمان:**

معرفة محاسن الدِّين؛ فإنَّ الدِّين الإسلاميَّ كلَّه محاسن، عقائده أصحُّ العقائد وأصدقها وأنفعها، وأخلاقه أحمد الأخلاق وأجملها، وأعماله وأحكامه أحسن الأحكام وأعدلها.

وبهذا النَّظر الجليل يُزَيِّن الله الإيمان في قلب العبد، ويُحَبِّبه إليه، كما امتنَّ به على خيار خلقه، بقوله: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِي قُلُوبِكُمۡ﴾ [الحجرات:٧]. فيكون الإيمان في القلب أعظم المحبوبات وأجمل الأشياء. وبهذا يذوق العبد حلاوة الإيمان ويجدُها في قلبه، فيتجمَّلُ الباطن بأصول الإيمان وحقائقه، وتتجمَّلُ الجوارح بأعمال الإيمان، وفي الدُّعاء المأثور:

«اللَّهُمَّ زَيِّنَّا بِزِينَةِ الْإِيمَانِ، وَاجْعَلْنَا هُدَاةً مُهْتَدِينَ»[١][٢].

لما كانت الزينةُ زينتين : زينةَ البدن وزينة القلب وكانت زينة القلب أعظمهما قدرا وأجلهما شأنا سأل ربه زينة القلب فقال زينا بزينة الإيمان، وإذا زان القلب بالإيمان زانت دنيا المرء وأخراه.

اللَّهُمَّ حبِّب إلينا الإيمان وزيِّنه في قلوبنا، وكرِّه إلينا الكفر والفسوق والعصيان، واجعلنا من الرَّاشدين، بفضلك ومنَّتك، إنَّك أنت العليم الحكيم.

(١) رواه النَّسائيُّ (١٣٠٥)، وصحَّحه الألبانِيُّ في صحيح الجامع (١٣٠١).

(٢) التَّوضيح والبيان لشجرة الإيمان (ص٧١ - ٧٧).